سلسلة في ظلال السنة

الحديث السابع

سعة رحمة الله

الدكتور الشيخ
سالم بن عبدالغني الرافعي

دار ابن حزم

الحديث السابع

سعة رحمة اللّه

بسم الله الرحمن الرحيم

سلسلة في ظلال السنَّة

الحديث السابع
سعة رحمة اللّه

الدكتور الشيخ
سالم بن عبدالغني الرافعي

دار ابن حزم

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى
١٤٣٦هـ ـ ٢٠١٥م

تم طبع هذه الرسالة على نفقة أبناء الحاج بهاء الجمل رحمه الله تعالى صدقة عن روح أخيهم المرحوم فؤاد بهاء الجمل رحمه الله تعالى

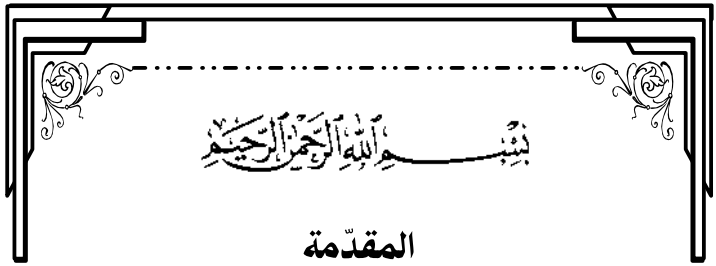

المقدّمة

اللَّهم إنّا نحمدك حمداً يوافي نِعمك، ويُكافي مَزيدك، لا نُحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك. ونصلي ونسلم على عبدك ورسولك وصفوتك من خلقك محمد بن عبدالله صلوات ربي وسلامه عليه، **وبعد**...

فإن السنّة النبوية ذَخَرت بكثير من الأحكام والمواعظ والعِبر. وقد دَرَج العلماء على مرّ العصور على تأليف المصنّفات في شرح أحاديث الأحكام وغيرها من أنواع الحديث، ليسهُل على الناس الإفادة منها.

ومعلوم أن لكل عصرٍ درجتَه في فهم العلوم واستيعابها، فما كان شرحاً يفهمه أهل عصر، قد يستعجم على من بعدهم حتى يحتاجوا إلى شرح للشرح، مع ما يستجدّ في حياة الأمة من هموم وأوضاع وتغيّرات.

لذلك حَسُن في رأيي أن يكون الشرح مناسباً لأهل كل عصر، يراعي مستواهم العلمي واللغوي، كما يتطرق إلى مشاكلهم المستجدّة، وليس إلى مشاكل عصر سبق لم تعد ذات بال عندهم.

وقد بدأت هذه الخطوة في خُطب الجمعة، إذ بدأت أشرح فيها جملة من أحاديث النبي ﷺ، وأربطها بالواقع الذي نعيش فيه. وهذا أعظم أثراً في النفوس من تحويل خطب الجمعة إلى نشرات أخبار سياسية، تخلو من ذكر الآيات والأحاديث، ولا تزيد في معطياتها عن أي نشرةٍ للأخبار، فتخرج بالخطبة عن موضوعها الذي شرعت لأجله، وهو وعظ الناس وتعليمهم.

ثم رأيت جمع هذه الخُطب في رسائل صغيرة عسى أن يعمّ نفعها، وسمّيتها: «**في ظلال السّنة**».

واللَّهَ أسأل أن يجعل أعمالنا خالصة لوجهه الكريم.

وكتبه الدكتور الشيخ
سالم بن عبدالغني الرافعي
في طرابلس ـ لبنان
بتاريخ ٢٨ /١/ ١٤٣٦هـ
الموافق له ٢٠١٤/١١/٢١م

متن الحديث

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن رجلاً فيمن كان قبلكم رغسه الله مالاً**[1]، **فلما حضره الموت قال لبنيه: أي بَنِيَّ، أي أبٍ كنت لكم؟ قالوا: خير أب. قال: فإني لم أعمل خيرًا قط، فإذا أنا مُتّ فأحرقوني، حتى إذا كنت فحمًا فاسحقوني، فإذا كان يوم ريح عاصف فاذروني فيها، فوالله لئن قدَرَ الله علي ليعذّبَنّي عذابًا ما عذبه أحدًا، وأخذ على ذلك عهودهم ومواثيقهم. فلما مات فُعل به ذلك. فأوحى الله تعالى إلى الأرض أن اجمعي ما فيك منه، فإذا هو قائم. فقال الله تعالى له: عبدي ما حملَكَ على ما فعلت؟ فقال: مخافتُك يا رب. فتلقاه الله برحمته فغفر له**»[2].

---

(١) رغسه أي أعطاه وبارك له فيه، من الرغس وهو البركة والنماء والخير.

(٢) رواه البخاري في مواضع من صحيحه برقم (٣٢٩١) و(٦١١٦) و(٧٠٦٩) وغيرها، ومسلم برقم ٢٥٥٧ وغيرهما.

شرح الحديث:

هذا الحديث العظيم إخوة الإسلام يخبرنا فيه النبي ﷺ قصّةً جرت في أمّة من الأمم قبلنا، وقد قَصَّهَا علينا النبيُّ ﷺ لنعتبر منها. وقبل أن أبيّن بعض هذه العبر، أود أن أشرح معنى الحديث إجمالاً بعون الله تعالى.

فهي قصة أب غني نزل به الموت فاجتمع حوله أولادُه، وأراد أن يوصيَهم بوصيّة، فمهّد لهم بسؤالِ تحفيزاً لهم على تنفيذ وصيته.

سألهم قائلاً: «**أي أبٍ كنت لكم؟**» أي: كيف كانت معاملتي لكم في حياتي؟ وكيف كان إنفاقي عليكم وإكرامي لكم؟ «**قالوا: خير أب**». أي: أحسنت معاملتنا وأنفقتَ علينا، وغذّيتنا وأكرمتنا وفي أحسن المدارس علمتنا. «**قال لهم: فإني لم أعمل خيراً قط**». أي: إني لم أعدّ شيئاً لآخرتي، فلم أعمل من الصالحات كما أمرني ربي، بل كنت أتوسّع في معصيته، (ففي رواية لهذا الحديث: «**كان رجل يسرف على نفسه**»[1] أي: يبالغ في المعاصي) وقد حضرني ما ترون من الموت، وأنا خائف من القدوم على الله، لأني لم أدّخر شيئاً لآخرتي، لذلك

(١) أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة برقم (٣٢٢٢).

أوصيكم بأمرٍ تفعلونه لأجلي. «**فإذا أنا مُتّ فأحرقوني حتى إذا كنت فحمًا فاسحقوني، فإذا كان يومُ ريح عاصف فاذروني فيها، فوالله لئن قدَر الله علي ليعذبَنّيً عذابًا ما عذبه أحدًا**». أي: بحقي عليكم وإحساني إليكم، أوصيكم بعد موتي أن تقوموا بحرق جثتي ثم بسحقها حتى تصبح رماداً ثم تنثروا رفاتي في الريح، لعلي إذا فعلتم ذلك بي لم يقدر الله تعالى أن يبعثني من جديد، لأنه إذا بعثني فسوف يعذبني عذاباً شديداً يفوق عذاب أيّ أحدٍ من الناس.

«**وأخذ على ذلك عهودهم ومواثيقهم، فلما مات فُعل به ذلك**»، أي: أن الأب خاف إن هو مات أن لا يقوم أولاده بتنفيذ وصيته، حباً به وإكراماً لجسده من أن يمسّه حرقٌ أو تلف، لذلك أراد أن يستوثق من أولاده بتنفيذ وصيته، فأخذ عليهم أيماناً وعهوداً أن يفعلوا بجسده ما أمرهم به. فلما مات الأب فعل أولاده بجسده ما طلبه منهم، فحرقوا جثمانه ثم سحقوه وانتظروا يوماً فيه ريح شديد فحملوا رفاته وألقوها مع الريح. «**فأوحى الله تعالى إلى الأرض أن اجمعي ما فيك منه فإذا هو قائم، فقال الله تعالى له: عبدي ما حملَكَ على ما فعلت؟ فقال: مخافتُك يا رب، فتلقاه الله برحمته فغفر له**».

وهنا يخبر النبي ﷺ عمّا سيقع لهذا الرجل يوم القيامة، يوم يبعث الله الخلق ليحاسبهم، فحينها يأمر الله تعالى الأرض أن تجمع ما تناثر فيها من رفات هذا الرجل، فيرجع حيّاً سويّاً كما كان في الدنيا. فيسأله الله تعالى، وهو أعلم به: ما الذي حملك على أن تأمر أولادك بحرقك بعد موتك ثم ذرهم لرفاتك في الريح؟ فقال: الخوف من عذابك يا رب. فتلقاه الله برحمته وغفر له.

❖فوائد الحديث:

هذا الحديث فيه فوائد عظيمة منها:

❍ الفائدة الأولى:

حال هذا الرجل تشبه حال كثيرين من المسلمين اليوم، فتجد أحدهم ينشأ ويشبّ وليس له همّ إلا جمع المال، سواء من الحلال أو من الحرام. ينشأ أحدهم فلا يسمع في بيته أو في محيطه إلا الكلام عن المال وعن الدنيا، وكيف أن فلاناً صار عنده مال فيتحدث الناس عنه وكأنه نال السعادة الأبدية، وكيف أن فلاناً افتقر فيتحدث الناس عنه وكأنه خسر كل شيء، فيرسخ كل هذا في مخيّلته ويتربّى عليه. فإذا شبّ لم يعد له همّ

إلا أن يجمع المال ليعيش كأحسن الناس، فيأكل أطيب الطعام، وينكح أجمل النساء، ويركب أجمل السيارات، ويعلم أولاده في أحسن الجامعات، ويصل الى أعلى المناصب. فيبقى منشغلاً بتكثير ماله، وتأمين مستقبل أولاده، غير ملتفتٍ إلى شيء من أمر آخرته، حتى يدركه الموت وهو على هذه الحال، فيجزع عندها من لقاء الله تعالى، ويتحسّر على ما أضاع، ويتمنّى لو يرجع الى الدنيا ليغيّر من سير حياته، حيث لا ينفع التمنّي .

وقد حذّر الله تعالى عباده من هذا المصير، فقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٩ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٠ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١١﴾[1].

ولا يُفهم من هذا الكلام أن الإسلام حرّم جمع المال أو منع الاهتمام بتعليم الأولاد، فليس هذا بحرام. إلا أن الإسلام حين أحلّ جمع المال اشترط لذلك شروطاً لا بدّ من مراعاتها.

---

(١) المنافقون: ٩ ـ ١١.

منها: أن تجمعه من حلال، وتجتنب موارد الحرام فيه.

ومنها: أن تؤدي حق الله فيه، وهو الزكاة، فتنفقها في مصارفها.

ومنها: ألا تستعمله في معصية الله ﷻ.

ومنها: ألا يشغلك جمع المال عما خلقت لأجله، وهو عبادة الله ﷻ، فلا يشغلك عن الصلاة في وقتها، ولا عن قراءة القرآن أو تعلم ما تحتاجه من أمر دينك. وقد وصف الله تعالى الصالحين من عباده بقوله: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾﴾[1].

وكذلك لم يحرّم الإسلام الاهتمام بتعليم الأولاد، ولكن على أولياء الأمور أن ينشّئوا أولادهم على حب الله ورسوله، ويزرعوا في قلوبهم الخوف من معصية الله ﷻ، فهذا أكبر عونٍ للأولاد على النجاح في

(١) النور: ٣٦ ـ ٣٨.

الدنيا والآخرة، كما أنه أعظم وسيلة للوالدين ليظفروا ببرّ أولادهم لهم.

❍ الفائدة الثانية:

إذا كان أحدنا على مثل حال هذا الرجل من الإسراف على نفسه في المعصية ثم حضره الموت، فلا يجوز له أن يقنط من رحمة الله أو ييأس من عفوه، كحال هذا المسكين الذي ظنّ أن الله تعالى إذا بعثه بعد موته فسوف يعذبه عذاباً لا يعذبه أحداً من العالمين. بل على المسلم أن يُحسن الظنّ بربه فيرجو صفحه وعفوه، ولا يقنط من رحمته مهما كان إسرافه على نفسه في المعصية. قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾[1]. وروى مسلم في صحيحه عَنْ جَابِرِ ابْنِ عَبْدِاللَّهِ الأَنْصَارِيِّ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَبْلَ مَوْتِهِ بِثَلَاثَةِ أَيَّام يَقُولُ: «**لاَ يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلاَّ وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِاللَّهِ** ﷻ»[2]، أي: إذا حضر أحدكم الموت فليعتقد أنّ الله تعالى سوف يغفر له، وسوف يتلقاه برحمته ويتجاوز عن سيئاته، وهذا معنى إحسانه الظن بربه سبحانه.

---

(١) الزمر: ٥٣.

(٢) أخرجه مسلم برقم (٧٤١٢).

قال ابن مسعود ﷺ: «والله الذي لا إله غيره لا يحسن أحد الظن بالله إلا أعطاه الله ظنّه، وذلك أن الخير بيده»[1].

فينبغي على العبد المسلم في حال الاحتضار أن يستحضر عفو الله ورحمته ومغفرته، مهما كانت ذنوبه ومعاصيه. وهذا لا ينفي ما يعتريه من خوف من عذاب الله في تلك الساعة، إلا أن عليه أن يغلّب جانب الرجاء على جانب الخوف في هذا الموطن.

فقد روى الترمذي وابن ماجه عن أنس بن مالك ﷺ قال: دخل رسول الله ﷺ على شاب وهو في الموت، فقال: «**كيف تجدك؟**» قال: أرجو الله يا رسول الله وأخاف ذنوبي. فقال رسول الله ﷺ: «**لا يجتمعان** (يعني: الخوف والرجاء) **في قلب عبد في مثل هذا الموطن** (يعني: الاحتضار) **إلا أعطاه الله الذي يرجو وأمّنه من الذي يخاف**»[2].

ففي هذا الحديث بيّن النبي ﷺ أن الرجاء والخوف قد يجتمعان في قلب العبد عند الاحتضار،

---

(١) أورده القرطبي في التذكرة من غير سند (٣١/١).

(٢) رواه الترمذي برقم (٩٨٣) وحسنه، وابن ماجه (٤٢٦١)، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (١٠٥١).

وأن اجتماعهما مستحسن وليس مذموماً، إلا أنّ عليه أن يغلب جانب الرجاء على جانب الخوف، تصديقاً لما وعد به النبي ﷺ من اجتمع في قلبه الخوف والرجاء عند الاحتضار: أن يعطيه الله تعالى ما يرجو من العفو والمغفرة، ويؤمّنه مما يخاف من العذاب.

ومن هنا كان من هدي السلف رضي الله عنهم إذا زاروا مريضاً فوجدوه يحتضر، أن يبشروه بسعة رحمة الله تعالى، ويذكروه بأعماله الصالحة التي عملها في الدنيا، ليحملوه على الظن أن الله تعالى سوف يغفر له ويعفو عنه. قال إبراهيم النخعي: «كانوا يستحبون أن يلقنوا العبد محاسن عمله عند موته، لكي يحسن ظنه بربه عز وجل»(١).

وقال ابن عباس رضي الله عنه: «إذا رأيتم الرجل قد نزل به الموت فبشروه حتى يلقى ربه وهو حسن الظن بالله تعالى، وإذا كان حياً فخوّفوه بربه واذكروا له شدّة عقابه»(٢). لذلك لما نزل الموت بعمر رضي الله عنه زاره ابن عباس رضي الله عنه وذكّره بمحاسن عمله. فروى البخاري في صحيحه عَنِ الْمِسْوَرِ بْنِ مَخْرَمَةَ قَالَ: لَمَّا طُعِنَ عُمَرُ

(١) رواه ابن أبي الدنيا في حسن الظن بالله (١/٤٠).
(٢) العاقبة في ذكر الموت للإشبيلي (١/١٤٥).

جَعَلَ يَأْلَمُ، فَقَالَ لَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ ـ وَكَأَنَّهُ يُجَزِّعُهُ ـ (أي: يزيل ما به من جزع): يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، وَلَئِنْ كَانَ ذَاكَ لَقَدْ صَحِبْتَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَأَحْسَنْتَ صُحْبَتَهُ، ثُمَّ فَارَقْتَهُ وَهْوَ عَنْكَ رَاضٍ، ثُمَّ صَحِبْتَ أَبَا بَكْرٍ فَأَحْسَنْتَ صُحْبَتَهُ، ثُمَّ فَارَقْتَهُ وَهْوَ عَنْكَ رَاضٍ، ثُمَّ صَحِبْتَ صَحَبَتَهُمْ فَأَحْسَنْتَ صُحْبَتَهُمْ، وَلَئِنْ فَارَقْتَهُمْ لَتُفَارِقَنَّهُمْ وَهُمْ عَنْكَ رَاضُونَ. قَالَ: أَمَّا مَا ذَكَرْتَ مِنْ صُحْبَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَرِضَاهُ، فَإِنَّمَا ذَاكَ مَنٌّ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى مَنَّ بِهِ عَلَيَّ، وَأَمَّا مَا ذَكَرْتَ مِنْ صُحْبَةِ أَبِي بَكْرٍ وَرِضَاهُ، فَإِنَّمَا ذَاكَ مَنٌّ مِنَ اللَّهِ جَلَّ ذِكْرُهُ مَنَّ بِهِ عَلَيَّ، وَأَمَّا مَا تَرَى مِنْ جَزَعِي، فَهْوَ مِنْ أَجْلِكَ وَأَجْلِ أَصْحَابِكَ، وَاللَّهِ لَوْ أَنَّ لِي طِلَاعَ الأَرْضِ ذَهَبًا لَافْتَدَيْتُ بِهِ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ ﷻ قَبْلَ أَنْ أَرَاهُ»[1].

وروى ابن أبي الدنيا بسنده قصة جميلة في حسن الظن بالله عند الموت، عن أبي غالب، قال: «كنت أختلف إلى الشام في تجارة، وعظم ما كنت أختلف من أجل أبي أمامة. فإذا فيها رجل من قيس، من خيار الناس. فكنت أنزل عليه، ومعنا ابن أخ له مخالف، يأمره وينهاه ويضربه، فلا يطيعه. فمرض الفتى، فبعث

(١) البخاري برقم (٣٦٩٢).

إلى عمه، فأبى أن يأتيه. فأتيته أنا به، حتى أدخلته عليه، فأقبل عليه يشتمه ويقول: أي عدو الله، الخبيث، ألم تفعل كذا؟ ألم تفعل كذا؟ قال: أفرغت أي عم؟ قال: نعم. قال: أرأيت لو أن الله دفعني إلى والدتي، ما كانت صانعة بي؟ قال: إذاً والله كانت تدخلك الجنة. قال: فوالله لله أرحم بي من والدتي. فقُبض الفتى، فخرج عليه عبد الملك بن مروان. فدخلت القبر مع عمّه، فخطوا له خطاً ولم يُلحدوا له، قال: فقلنا باللبن، فسوّيناه. قال: فسقطت منها لبنة، فوثب عمّه فتأخر. فقلت: ما شأنك؟ قال: ملئ قبره نوراً، وفسح فيه مثل مدّ البصر»[1].

○ الفائدة الثالثة:

أن الأب الغنيّ الوارد في الحديث لم يدفعه الخوف من الله إلى اليأس من عفو الله فحسب، بل دفعه خوفه إلى أمر عظيم يودي بصاحبه إلى الكفر الصريح. وذلك حين اعتقد أن الله تعالى لا يستطيع أن يبعثه بعد موته إذا تناثرت رفاته في الريح، لذلك طلب من أولاده أن يذروا رماده في يوم ريح عاصف، وعلّل ذلك بقوله:

---

(١) المحتضرين (٢٢/١).

«**فوالله لئن قدر الله عليَّ ليعذبني عذابًا ما عذبه أحدًا**»، فشكّ في قدرة الله على جمعه. ويؤكد مراده لهذا المعنى: ما ورد في رواية أخرى لهذا الحديث جاء فيها: «**ثُمَّ اذْرُونِي فِي الْبَحْرِ فِي يَوْمٍ رِيحٍ لَعَلِّي أَضِلُّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى**»[1] أي: لعليَّ أَفُوتُه ويَخْفَى عليه مَكَاني، كما ورد شرحها في النهاية[2].

ومعلوم أن من شك بقدرة الله تعالى فقد كفر، لأنه كذّب كلام الله، قال تعالى ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ۝٣ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ۝٤﴾[3]. فصاحبنا شك في القدرة، ومع هذا غفر الله له، فكيف تأتّىٰ ذلك؟ لقد أجاب العلماء عن هذا الإشكال بعدة أجوبة، اخترت منها الجواب الذي رجحه الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهو: أن الرجل قال ذلك في حال دهشته، وغلبة الخوف عليه، حتى ذهب بعقله فلم يعد يدري ما يقول، ولم يقله قاصداً لحقيقة معناه، بل قاله في حالة كان فيها كالغافل والذاهل والناسي الذي لا يؤاخذ بما يصدر منه. وهو نحو الرجل الآخر الذي غلب عليه الفرح حين وجد راحلته بعد أن أيس منها،

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده برقم (٢٠٥٤٧).

(٢) النهاية في غريب الأثر ـ (٢٠٦/٣).

(٣) القيامة: ٣ ـ ٤.

فقال: «**اللهم أنت عبدي وأنا ربك**»[1] ولم يكفر بذلك الدهش والغلبة والسهو[2].

❍ الفائدة الرابعة:

الأبناء لما مات أبوهم فعلوا به ما طلبه منهم من التحريق وغيره، لأنه وصية أبيهم لهم وعهده الذي أخذه عليهم. وفعلهم هذا لا يجوز في شريعتنا، ففي الإسلام إذا أوصى الأب أولاده بمعصية الله فعليهم أن ينصحوه بتركها، فإن أبى عليهم لم يطاوعوه فيها، إذ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

❍ الفائدة الخامسة:

فليُعلم أن غلبة الخوف من الله سبحانه وتعالى وإن

---

(١) فيه إشارة إلى الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه برقم ٧١٣٦ عن أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**لَلَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ مِنْ أَحَدِكُمْ كَانَ عَلَى رَاحِلَتِهِ بِأَرْضٍ فَلَاةٍ فَانْفَلَتَتْ مِنْهُ وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ فَأَيِسَ مِنْهَا فَأَتَى شَجَرَةً فَاضْطَجَعَ فِى ظِلِّهَا قَدْ أَيِسَ مِنْ رَاحِلَتِهِ فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ إِذَا هُوَ بِهَا قَائِمَةً عِنْدَهُ فَأَخَذَ بِخِطَامِهَا ثُمَّ قَالَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ: اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ، أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ**».

(٢) انظر فتح الباري (٥٢٣/٦) وشرح النووي على مسلم (٧١/١٧).

لم تكن محمودة في مقام الاحتضار إلا أنها تُحمد في سائر مقامات الحياة. لذلك قال ابن عباس ﷺ: «إذا رأيتم الرجل قد نزل به الموت فبشروه حتى يلقى ربه وهو حسن الظن بالله تعالى، وإذا كان حياً فخوّفوه بربه واذكروا له شدة عقابه»[1]، أي: عند الموت يبشر بالخير، ليغلب جانب الرجاء على جانب الخوف، وأما عند الحياة فيذكر بأحاديث التخويف ليغلب جانب الخوف على جانب الرجاء، خاصة في أيام شبابه وقوته. وهذا من فقه السلف ﷺ، لأن الخوف من الله تعالى سوط يمنع العبد من الانجرار الى المعصية، فعمل السوط يُجدي عندما تُرجى المعصية وتُتوقع، وذلك في حال الحياة والشباب والقوّة والغنى، وأما في حال انتهاء الحياة وإدبارها فلم يعد يُجدي سوط الخوف لأنه لا مجال للمعصية حينها إذ لم يبق إلا القدوم على الله ﷻ والوقوف بين يديه.

من هنا عظّم الإسلام أجر الخوف من الله سبحانه وتعالى، لعظيم أثره في تثبيت الإيمان، وتهذيبه للنفس البشرية، والسير بها نحو الكمال الإنساني. قال تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾[2]، أي ولمن خاف

(١) العاقبة في ذكر الموت للإشبيلي (١/١٤٥).
(٢) الرحمٰن: ٤٦.

الوقوف بين يدي الله في عرصات القيامة فآمن واتقى جنتان. كما جعله الإسلام من أعظم أسباب النجاة من النار، قال رسول الله ﷺ: «**ثلاث منجيات: خشية الله تعالى في السر والعلانية، والعدل في الرضا والغضب، والقصد في الفقر والغنى. وثلاث مهلكات: هوى متبع، وشح مطاع، وإعجاب المرء بنفسه**»(١).

وقد بيّن النبي ﷺ فضل البكاء من خشية الله تعالى فقال: «**لا يلج النار رجل بكى من خشية الله حتى يعود اللبن في الضرع، ولا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان جهنم**»(٢)، أي: كما يتعذر رجوع الحليب إلى الضرع بعد انفصاله عنه، كذلك حرّم الله تعالى على النار من أثّر الخوف من الله على قلبه حتى أدمعت عيناه .

والخوف من الله دليل على صدق إيمان صاحبه، بخلاف كثير من الأعمال الصالحة فإنها لا تدل بالضرورة على صدق الإيمان. ففي حديثٍ عن ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لأعلمن أقوامًا من أمتي يأتون**

---

(١) رواه أبو الشيخ عن أنس، وحسنه الألباني في صحيح وضعيف الجامع الصغير برقم (٥٣٥٠).

(٢) رواه الترمذي وصححه، والنسائي من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن الترمذي برقم (١٦٣٣).

يوم القيامة بحسنات أمثال جبال تهامة بيضًا، فيجعلها الله ﷻ هباءً منثورًا». ففي هذا الحديث يخبر النبي ﷺ عن مشهدٍ من مشاهد يوم القيامة، وأصحابُ هذا المشهد هم قوم من أمّة النبي محمد ﷺ يأتون يوم القيامة بحسنات كالجبال في عِظمها وكثرتها، ثم يجعلها الله تعالى هباءً منثورًا. وحين أخبر النبي ﷺ أصحابه عن هذا المشهد خافوا وسألوه أن يبيّن صفاتهم وأعمالهم، خشية أن يقعوا فيها. «قال ثوبان: يا رسول الله صفهم لنا، جَلِّهم لنا، أن لا نكون منهم ونحن لا نعلم»، فعندها بيّن النبي ﷺ صفاتهم واضحة.

«**قال أما إنهم إخوانكم ومن جلدتكم، ويأخذون من الليل كما تأخذون، ولكنهم أقوام إذا خلوا بمحارم الله انتهكوها**»[1]، أي: هم مثلكم في إظهار الطاعات وارتياد المساجد بل ولهم عبادة في الليل، غير أنهم إذا عرضت لهم معصية في غفلة من الناس وقعوا فيها.

وورد في رواية لهذا الحديث عند أبي نعيم: «**قال: كانوا يصومون، ويصلون، ويأخذون هنة من الليل، ولكن كان إذا عرض عليهم شيء من الحرام وثبوا عليها،**

---

(١) رواه ابن ماجه، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (٥٠٥).

فأدحض الله أعمالهم»[1]. إذاً هم قوم من المسلمين الملتزمين، لأنهم يصلون ويصومون ويصلون في الليل التراويح ونحوها على أعين الناس، ولكن ليس عندهم خوف حقيقي من الله سبحانه وتعالى. بمعنى أن أحدهم لو سنحت له فرصةٌ ليأكل مال أخيه بالحرام دون أن يراه أحد لأكله، ولو أن أحدهم إذا عرضت له امرأة بالحرام ولم يطلع عليه أحد لوقع عليها، فهم يظهرون طاعة الله في العلانية، ولكن ليس في قلوبهم خوف حقيقي من الله. هؤلاء يخبر عنهم النبي ﷺ أنهم يأتون يوم القيامة بحسنات كثيرة كالجبال، ولكن يحبطها الله ﷻ ويجعلها هباءً منثورًا، لأنهم لم يقصدوا بها وجه الله سبحانه، بل قصدوا بها وجوه الناس. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾﴾[2].

وهذا الحديث خطير، لأنه يمس كثيرًا من المسلمين اليوم، حتى الملتزمين منهم، فترى كثيراً منهم يظهرون من الالتزام بالدين وسنن النبي ﷺ أدقّ التفاصيل، فإذا جربتهم بالمال أو غيره لرأيت بعدهم الشديد عن هدي النبي ﷺ.

---

(١) رواه أبو نعيم الأصبهاني في معرفة الصحابة (٩/٤١٥).

(٢) النساء: ١٤٢.

والمجتمع الذي يضعف فيه الخوف من الله سبحانه وتعالى يقلّ فيه التراحم بين أفراده، وتنتشر فيهم القسوة، والشدّة، وسوء الظنّ، والحقد، والغضب، وهذا ما نراه كثيراً في حياتنا.

❍ الفائدة السادسة والأخيرة:

هذا الحديث العظيم يظهر مدى رحمة الله تعالى بعباده وسعتها. فهذا عبد بالغ في معصية الله ﷻ، ولم يعمل شيئاً من الخير في حياته، ثم ختم حياته بوصيّة محرّمة، وقال في دهشته كلمة، لو قالها رجل عاقل ذاكر لكان بها كافراً، وذلك حين شك في القدرة الإلهية، ومع كل هذا يتلقاه الله تعالى يوم القيامة برحمته ويغفر ذنوبه كلها.

فرحمة الله تعالى واسعة لا شك في ذلك، وقد جاءت النصوص من الكتاب والسنة تدلّ على ذلك. غير أن علم المرء بسعة رحمة الله تعالى لا يجوز أن يحمله على ترك الأعمال الصالحة والإقدام على معصية الله اتكالاً على سعة رحمته، بل يجب أن يدفعه علمه بها إلى فعل الطاعات والازدياد منها، تعبيراً عن مدى شكره لله تعالى على نعمته العظيمة بسعة رحمته. وأعظم مثال يحتذى به في هذا هو رسولنا محمد ﷺ. فقد بشّره ربه في الدنيا أنه غفر له ذنوبه كلها، فلم يتّكل على هذه

البشارة ويتقاعس عن الطاعات، بل حملته تلك البشارة على الزيادة منها.

فروت عَائِشَةَ رضي الله عنها أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقُومُ مِنَ اللَّيْلِ حَتَّى تَتَفَطَّرَ قَدَمَاهُ. فَقَالَتْ عَائِشَةُ: لِمَ تَصْنَعُ هَذَا يَا رَسُولَ اللَّهِ وَقَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ؟ قَالَ: «**أَفَلَا أُحِبُّ أَنْ أَكُونَ عَبْدًا شَكُورًا**»(١).

فمن أيقن أن الله تعالى واسع الرحمة بعباده وجب عليه أن يقابل هذه النعمة بشكره وطاعته، وأما من قابل ذلك بالتساهل بالمعاصي كان جاحداً لهذه النعمة. وجحوده هذا معصية تضاف إلى سائر معاصيه.

قال الحسن البصري رحمه الله: إن قومًا خرجوا من الدنيا ولا حسنة لهم، قالوا: نحسن الظن بالله، وكذبوا، لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل.

وفي الختام نسأل الله تعالى أن يبصرنا بهدي نبيه ﷺ ويثبتنا عليه.

(١) أخرجه البخاري برقم (٤٨٣٧) ومسلم برقم (٢٨١٩).

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
المقدّمة	٥
متن الحديث	٧
شرح الحديث	٨
فوائد الحديث	١٠
الفائدة الأولى	١٠
الفائدة الثانية	١٣
الفائدة الثالثة	١٧
الفائدة الرابعة	١٩
الفائدة الخامسة	١٩
الفائدة السادسة والأخيرة	٢٤